طرابلس في القرن الخامس الهجري

من خلال كتاب "سفرنامه" لناصر خسرو

سفر نامه هي كتاب رحلة ناصر خسرو الى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري .

ومؤلف الكتاب ، ناصر خسرو ، ولد في قباديان عام ٣٩٤هـ – ١٠٠٣م في اسرة متوسطة الحال لا هي بالغنية ولا هي بالفقيرة ، وتثقف ثقافة واسعة والتحق بخدمة السلطانين الغزنويين محمود ثم ابنه مسعود . وحين قام السلاجقة التحق ناصر بخدمة جغري بيك السلجوقي حاكم خراسان .

اما الذي دفعه الى القيام برحلته فهو انه كان يقرأ القرآن الكريم فوصل الى قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين ، اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا » . حينئذ اخذ منه الحماس كل مأخذ فنهض من مقعده . وعزم على الرحيل الى حيث الشجرة التي بايع المؤمنون تحتها النبي صلى الله عليه وسلم على ان يقاتلوا معه ..

غادر ناصر مدينة « مرو » مستصحبا اخاه ابا سعيد وغلاما هنديا ، وبعد ان زار بيت المقدس ، قصد الحج لان محدثه في الرؤيا اشار الى القبلة حين سأله اين يجد ما يبدد شكوكه ..

كتب ناصر حوادث رحلته يوما فيوما ، تشهد بذلك الدقة التي نراها في وضعه للاماكن التي زارها .

ويقسم الباحثون رحلته الى مراحل ثلاث :

المرحلة الاولى تبدأ بقيامه من مرو في ربيع الاخر سنة ٤٣٧هـ تشرين اول ١٠٤٥م وتنتهي ببلوغه القاهرة في ٧ صفر ٤٣٩ ٤ تموز ١٠٤٧ .

والمرحلة الثانية اقامته في مصر من ٧ صفر ٤٣٩هـ الى اواخر جمادي الثاني ٤٤٢هـ (اواخر تشرين – اكتوبر ١٠٥٠)

والمرحلة الثالثة عودته الى بلخ عن طريق الحجاز والحسا والبصرة وتبدأ منذ قيامه من مصر وتنتهي في ٢٦ جمادي الاخر ٤٤٤ (٢٦ تشرين اول ١٠٥٢) . وهذا يعني انه اقام في رحلته حوالي ١٢ عاما .

لقد زار ناصر خسرو العديد من المدن خلال تجواله ونقل مشاهدات عديدة خاصة به ، وننقل هنا المقاطع التي وصف فيها مدينة طرابلس فأتى بمعلومات فريدة لا نستطيع ان نجدها في مرجع غير هذا الكتاب .

« وفي الخامس عشر من رجب سنة ٣٣٨ (١٥ يناير – كانون الثاني ١٠٤٧) سرنا الى كويمات ، ومنها الى حما . وهذه مدينة جميلة عامرة على شاطىء نهر العاجي ، ويسمى هذا النهر بالعاصي لانه يذهب الى بلاد الروم . فهو يخرج من بلاد الاسلام ليدخل بلاد الكفر . وقد نصبوا عليه سواقي كثيرة . ومن حما طريقان ، احدهما بجانب الساحل غرب الشام ، والاخر في الجنوب وهو ينتهي الى دمشق ، فسرنا عن طريق الساحل . وقد رأينا في الجبل عينا ، قيل ان ماءها يتفجر في الثلاثة ايام التالية لنصف شعبان من كل سنة ، ثم ينضب فلا تخرج منه قطرة واحدة حتى السنة التالية . ويذهب الكثيرون لزيارة هذه العين تقربا الى الله سبحانه وتعالى ، وقد بنيت هناك عمارات واحواض . ولما سرنا من هناك بلغنا سهلا كساه النرجس ثوبا ابيض . وذهبنا بعد ذلك الى مدينة تسمى عرقة . وبعد مسيرة فرسخين منها بلغنا شاطىء البحر فتبعناه ، ناحية الجنوب ، حتى بلغنا مدينة طرابلس بعد مسيرة خمسة فراسخ .

ومن حلب الى طرابلس اربعون فرسخا عن هذا الطريق . وكان بلوغنا اياها في يوم السبت الخامس من شعبان (٦ شباط) وحول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر واشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر ، وكان عسل السكر يجمع حينذاك . ومدينة طرابلس مشيدة بحيث ان ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر ، فاذا ماج علت امواجه السور ، اما الجانب المطل على اليابس فيه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم . وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه ، وعلى قمتها عرادات لوقايتها من الروم ، فهم يخافون ان يغير هؤلاء عليها بالسفن . ومساحة المدينة الف ذراع مربع . واربطتها اربع او خمس طبقات ، ومنها ما هو ست طبقات ايضا . وشوارعها واسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن ان كل سوق قصر مزين .

وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الاطعمة والفواكه ، بل احسن منه مائة مرة . وفي وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف ، جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام ، في وسطه فوّارة من النحاس الاصفر . وفي السوق شرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير ، يأخذ منه الناس حاجتهم ويفيض باقيه على الارض ويصرف في البحر .

ويقال ان بها عشرين الف رجل ، ويتبعها كثير من السواد والقرى ، ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل احسن منه . وهي تابعة لسلطان مصر . قيل وسبب ذلك انه في زمن ما اغار عليها

طرابلس – قلعة سان جيل
حفر وودورد وهارلي

BEIRUT



طرابلس — قلعة سان جيل
حفر بارتليت وستارلينغ

جيش الروم الكفار فحاربه جند سلطان مصر وقهروه . فرفع السلطان الخراج عنها ، واقام بها جيشا من قبله ، على راسه قائد . لحمايتها من العدو .

وتحصل المكوس بهذه المدينة . فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والاندلس والمغرب العشر للسلطان ، فيدفع منه ارزاق الجند . وللسلطان بها سفن تسافر الى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة .

وسكان طرابلس كلهم شيعة . وقد شيد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد . وهناك بيوت على مثال الاربطة ، ولكن لا يسكنها احد ، وتسمى مشاهد . ولا يوجد خارج طرابلس بيوت ابدا ، عدا مشهدين أو ثلاثة من التي مر ذكرها .

وغادرت طرابلس وسرت على شاطىء البحر ، ناحية الجنوب ، فرايت على مسافة فرسخ واحد قلعة تسمى قلمون ، في داخلها عين ماء . وسرت من هناك الى طرابزون ، ومن طرابلس اليها خمسة فراسخ . ومنها بلغنا مدينة جبيل وهي مثلثة ، تطل زاوية منها على البحر ...

ومن هناك بلغنا بيروت ، فرايت بها طاقا حجريا ، شق الطريق في وسطه ، وقد قدرت ارتفاعه بخمسين ذراعا ...

ثم بلغنا الى مدينة صيدا ، وهي على شاطىء البحر ايضا ، يزرع بها قصب السكر بوفرة . وبها قلعة حجرية محكمة ، لها ثلاث بوابات . وفيها مسجد جميل يبعث في النفس هيبة تامة ... » .